الكلاسيكية في الخطاب التاريخي العربي المعاصر

تراثُنا أَمْ تراثُهم؟

. ناصر الرباط* .

الخطاب التاريخي العربي وتجاهُلُ المؤثِّرات الكلاسيكية

على الرغم من الثورة النقدية التي سبَّبَها صدورُ كتاب المفكّر المرحوم إدوارد سعيد الرائع **الاستشراق** منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، فمازالت العنصريةُ تَصْبُغ غالبيةَ الدراسات والأفلام والصور والريبورتاجات التلفزيونية عن العرب والمسلمين في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، خاصةً بعد هجمات الحادي عشر من أيلول في نيويورك وواشنطن. فهذه الكتابات المعاصرة مازالت تُبْدي الكثيرَ من مظاهر التعنّت والتحيّز في دراسةِ وتمثيلِ تاريخ العرب والمسلمين، ونفيِ العديد من الإنجازات الحضارية عنهم أو التقليلِ من أهميّتها أو ربطِها بعناصر خارجيةٍ لا صلة لهم بها. وهي في غالبيتها تسير على نهج الأكاديميا الغربية الاستشراقية التي احتكرتْ دراسةَ تاريخ العرب والمسلمين في القرنيْن الماضيَيْن ومارستْ ومازالت دورَ المتكلّم باسمه واسم ماضيه وحاضره، شاء أَمْ أبى. وهي أيضًا تميل إلى إسقاطات سهلة ومفبركة وعنصرية على حاضر العرب والمسلمين وعلى نفسيتهم، كما لو أنّهم أقوام عاشوا ويعيشون خارج التاريخ وخارج النمو والتغير والتطور والحداثة، حتى ولو كان كتّابها ومُعدّوها من أكثر المستشرقين إعجابًا بالحضارة العربية والإسلامية.

ولكنّ هذه الحالة، للأسف، لا تقابلها في العالم العربي «النائم على روحه،» كما يقول إخوانُنا المَصريّون، أيُّ محاولةٍ جادة لاستعادة زمام الكتابة والبحث في التاريخ العربي والإسلامي. فلا الثقافةُ العربيةُ المعاصرة، ممثّلةً بالجامعات العربية أو مراكز البحث والنشر والقرار على الصعيديْن الثقافي والسياسي، قادرةٌ أو مستعدةٌ معرفيًا لأن تَنْهض من غفوتها فتبدأ بمقاربة تاريخها مقاربةً فكريةً شاملة تنقّب في مختلف جوانبه وتَدْرسها وتصوغ منها هيكلاً معرفيًا متكاملاً وفعّالاً؛ ولا المعاهدُ العلميةُ الموجودة، أو الثقافةُ الاجتماعيةُ والسياسية القائمة، قادرةٌ على تشجيع واحتضان حتى أضعف أنواع الإنتاج المعرفي، أي الإنتاج الفردي الجادّ والهادئ الذي يَلْتزم أسسَ البحث الواعي والموضوعي قدرَ الإمكان ويَعْتمد في خلافاته على مبدإ مقارعة الحجة الأكاديمية بالحجة الأكاديمية. بل السائد هو خطاب شبهُ تاريخي وعاطفي ومؤدلج، يَدْمج الحسَّ التاريخي بالحسّ الثقافي الإسلامي المهيمِن حاليًا، ويتّخذ موقفًا تمجيديًا ودفاعيًا كاسحًا تجاه التاريخ العربي الإسلامي بشكل عام، مضحّيًا أحيانًا بالحقائق التاريخية الظاهرة للعيان، وأحيانًا بالنسبية التاريخية في التعامل مع مراجع كُتبتْ قبل قرون من ظهور الأساليب الكتابية الحديثة.

لن أخوض هنا في تحليل هذا الخطاب التاريخي لتبيان أسبابه واستكناه أبعاده. ما أودّه هو أن أركّز على نقطة واحدة هي الاستقطاب الثقافي الحادّ الذي يلجأ إليه الكثيرُ من المؤرّخين العرب في نقاشاتهم حين يركّزون على البعديْن العرقي والجغرافي في بناء الصرح الحضاري العربي والإسلامي، مع أنّ الإنجازات الحضارية المهمة حقًا في تاريخ العالم العربي منذ ما قبل الإسلام وحتى اليوم ـ بل وفي كل مكان آخر في العالم ـ هي تلك التي استطاعت هضمَ ودمجَ وتفعيلَ **العديد** من المؤثّرات الثقافية والعرقية المختلفة الأصول والمنابع وصياغتَها بشكل جديدٍ ومنفتحٍ وقابلٍ للتفاعل والنمو والتغيير.

ولأُوضحْ ما أعني ضاربًا مثلاً واحدًا من التاريخ العربي والإسلامي، ألا وهو استمرار الحضارة الكلاسيكية ـ بمكوّناتها الهلينستية والرومانية والبيزنطية ـ كمؤثّر فعّال في الحضارة الإسلامية التي ترعرعتْ في قلب المنطقة العربية، وبشكل خاص في بلاد الشام

* ـ أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية ـ كلية العمارة، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T.)

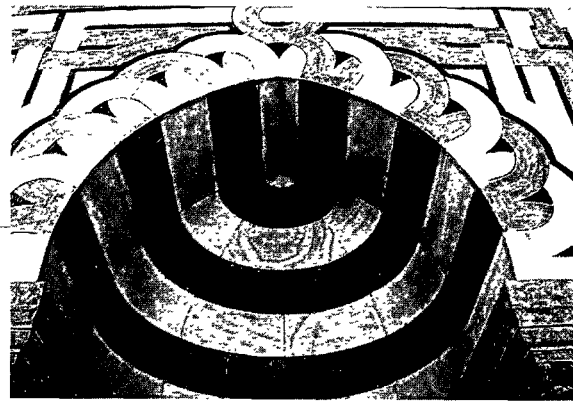

«العقدة السورية» كما تظهر حول حنية محراب المدرسة السلطانية في حلب (١٢٢٣ ـ ١٢٢٥)

ومصر وشمال إفريقيا هذا التأثير يتمّ تجاهلُه تجاهلاً تامًّا في الخطاب التاريخي العربي والإسلامي المعاصر. ولذلك التجاهل أسباب تاريخية، هي الأخرى، يَجْدر بنا التوقّفُ عندها قليلاً ومناقشتُها.

خليطٌ خلاّق

عاشت بلادُ الشام ومصر وشمالي أفريقيا ألفَ سنة (بين حوالى ٣٣٠ قبل الميلاد و٦٤٠ بعد الميلاد عمومًا) كجزء من عالم متوسطي كلاسيكي: هيلينستي بدءًا، وروماني لاحقًا، ومسيحي بيزنطي في النهاية. وقد تفاعلت المنطقة مع واقعها ذاك: أخذتْ منه وأعطته، بل وتماهت معه، حتى إنّ العديد من المنجزات الثقافية والأدبية والعلمية والفنية والمعمارية الكلاسيكية والمسيحية ذو جذور شرقية. ولعلّ أهمّ هذه المنجزات هو نشوء الديانة المسيحية في فلسطين وانتشارها في كل أرجاء الإمبراطورية على أيدي مبشّرين ومنظّرين ومفكّرين غالبُهم من أبناء الشعوب «الشرقية» أو «السامية» نفسها (مع التحفُّظ على المصطلحيْن). والحقيقة أنّه لا يُمْكننا الفصلُ بين أبناء مصر والشام وشمالي أفريقيا وأبناء اليونان والأناضول وإيطاليا وإسبانيا عند تقييمنا لإنجازات الحضارتين الهيلينستية والرومانية حول حوض البحر الأبيض المتوسط. بل ربما كان لأبناء مصر والشام وشمالي أفريقيا، وبخاصةٍ مواطنو الإسكندرية وأنطاكية وبيروت وصيدا وصور ودمشق وأفاميا وتدمر ومدن الديكاپوليس في حوران وشمال الأردن اليوم وغيرها، الباعُ الأطولُ في دفع عجلة الحضارة التي اصطلحتْ أوروبا على تسميتها بالحضارة الكلاسيكية المتأخّرة، والتي اعتبرتْها مهدَ حضارتها هي نفسها وحاولتْ جاهدةً نفيَ المساهمة الشرقية الأساسية في تحديد ملامح هذه الحضارة على الرغم من الحقائق التاريخية والجغرافية الثابتة.

ولم يكن هذا النشاط الحضاري محصورًا بالمستوطنين الجدد القادمين من وراء البحر، من إغريق ومقدونيين ورومان، كما تدّعي غالبيةُ الأدبيات الاستشراقية. فخلال الألف سنة من الوجود الهلينستي والروماني، انصهر سكّانُ البلاد القدماء مع القادمين الجدد لتشكيل التركيبة السكّانية الهلينستية والرومانية والبيزنطية في سورية، كما حصل دائمًا في التاريخ عندما وَفَدَ عنصرٌ جديدٌ على بلد ما بهدف الاستيطان. ومن هذا الانصهار تفتّقتْ ثقافةٌ جديدة وفنٌّ جديد وأدبٌ جديد وعمارةٌ جديدة لا هي بالكلاسيكية المحضة ولا هي بالما قبل ـ كلاسيكية المحضة، بل هي، كما التركيبة السكّانية، خليطٌ خلاّقٌ من المؤثّرات الحضارية كلّها. وإلاّ فكيف نَفْهم مساهمات أمثال المعماري أپولودور الدمشقي الذي عاش في القرن الثاني ميلادي وكان المعمارَ الإمبراطوري في عهد الإمبراطور تراجان، أو الكاتب البليغ والشهيد المسيحي لوسيان الذي نشأ في سميساط على الفرات ومات شهيدًا عام ٣١٢ م، أو الجغرافي بطليموس الإسكندراني، أو المنظِّريْن الفيلسوفيْن الأنطاكيّيْن ليبانيوس (عاش حوالى ٣١٤ ـ ٣٩٣) ويوحنا فم الذهب المسيحي (٣٤٧ ـ ٤٠٧)، أو مؤسِّس الكنيسة بولس الرسول وأصحاب الأناجيل الأربعة الفلسطينيين، أو المنظِّر الديني المسيحي يوحنا الدمشقي، أو أعظم المنظِّرين المسيحيين المبكّرين القديس أغوسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠) الذي وُلد ونشأ في شمال أفريقيا، وغيرهم الكثير الكثير؟ كلُّ هؤلاء نَهَلوا من منابع حضارية مختلطة امتزجتْ فيها الأصولُ «الشرقية،» من كنعانية وآرامية وفينيقية وقبطية وعبرية وبربرية وغيرها، بالتأثيرات الهيلينية والرومانية، وأَثْرَوْا بأعمالهم حضاراتِهم هم في بلادهم هم من دون أن يَرَوْا أنفسَهم منتمين إلى غربٍ أو شرقٍ فقط

ولم تختفِ كلُّ هذه المؤثِّرات دفعةً واحدة ومن دون أثر يُذْكر في الشخصية السورية أو المصرية أو الشمال أفريقية العربية والمسلمة أو في التعبير الفني والأدبي العربي بعد مجيء الإسلام، وإن استُبدِلتْ غالبيةُ أساساتها الدينية

الإنجازات الحضارية المهمة في التاريخ العربي هي التي استطاعت هضمَ وتفعيلَ المؤثِّرات المختلفة الأصول

والحضارية والإمبراطورية بأسس جديدة أو مجددة (بعضُها مازال يحتفظ حتى اليوم بجذوره الكلاسيكية). بل بقيتْ منها علاماتٌ وإنْ أضحتْ باهتةً، وأصواتٌ وإنْ أصبحتْ خافتةً مع مرور الزمن وتراكُم التأثيرات الآتية من أقاصي الشرق والجنوب، ولكنّها موجودة ومؤثِّرة على الصعيديْن الفولكلوري والشعبي ومتغلغلةٌ في بعض خصائص السلوك واللغة والعادات والمراسيم والأذواق، إنْ لم يكن على السطح الرسمي والمؤدلج المعاصر. ومن ثم، لا يُمْكننا أن نُهْمل ذلك التفاعل وهذا التأثير عند البحث في جذور الهوية الثقافية والأدبية والفنية والمعمارية العربية كما فعلتْ غالبيةُ الإيديولوجيات الحديثة من استشراقية ووطنية وإسلامية حاولت الانتقالَ بالتاريخ ما قبل الفتح الإسكندري إلى الامتداد الإسلامي بعد البعثة المحمدية، قافزةً فوق ألف سنة من التاريخ الفاعل، كما لو أنّها حصلتْ وبادتْ من دون أن تَخْترق السطحَ القاسي للتراث الشرقي للمنطقة أو تتفاعلَ معه أو تؤثِّر وتتأثَّر به.

في البداية، كان تجاهُلُ الألف سنة من الحضارة الكلاسيكية الشرقية واستمراراتها في التراث العربي الإسلامي متعمَّدًا من قِبل منظِّري التاريخ الأوروبيين، وذلك في عملية تحوّل تاريخية متطاولة ارتكزتْ على أسباب عقائدية محضة فالأوروبيون، الذين أقاموا نهضتهم ابتداءً من القرن الخامس عشر على إحياء التراث الكلاسيكي والبناءِ عليه، استحوذوا لأنفسهم على هذا التراث كلّه من اليونان إلى روما إلى الحضارة الهيلينستية وفي النهاية إلى المسيحية نفسها، مع أنّ أوروبا الجغرافية لم تلعب دورًا يُذْكر في أيّ من هذه الحركات الحضارية العملاقة. وأُسقط الشرقُ، الذي سيصبح عربيًا ومسلمًا، من الانتماء إلى هذا التراث. ولتبرير هذا الإسقاط، لجأ المنظِّرون الأوروبيون إلى فرضيتيْن أراهما واهيتيْن تاريخيًا وبنيويًا.

● أُولى هاتيْن الفرضيتيْن هي أنّ الجذر الساميّ الدفين في المنطقة طغى على الوافد الكلاسيكي خلال العهد الروماني وحَوَّرَ - بل وفي النهاية أزال - تأثيراتِ العهد الهلينستي/الروماني الثقافية، ليعيد إلى الساحة أدواتٍ تعبيريةً ساميّةً صميمةً مثّلها صعودُ الديانة اليهودية في الفترة الانتقالية بين السلوقية والرومانية، ومن بعدها المسيحية الشرقية، على حساب الفلسفة والمنطق الإغريقييْن والديانات التركيبية الهلينستية والرومانية. لكنّ هذا التفسير، بالإضافة إلى هشاشته التاريخية، يَسْلتزم تلاعبًا أكروباتيًا من قبل المؤرِّخين لتعليل كيفية تقمُّص أوروبا لهوية كلاسيكية لم تَخْتبرها مباشرةً (فيما عدا إيطاليا وإسبانيا وبعض فرنسا)، ولتعليلِ كيفية تقبُّل هذه الأوروبا نفسِها للمسيحية وهي على ما هي عليه من التجذّر في الفكر الساميّ التقيّ والمؤْمن بالغيبيات والمعجزات والخرافات.

هذه الفرضية الواهية هي ما استعملتْه تلك الأدبياتُ العنصرية الأوروبية في التاريخ والأركيولوجيا والدراسات الثقافية عامةً لتبرير إسقاط الوجود الكلاسيكي المتطاول في سورية وفلسطين والعراق ومصر من قائمة المؤثِّرات الحضارية على هوية المنطقة. وهكذا بدا كما لو أنّ المنطقة كان لها هويةٌ فوق - تاريخية، وهي ما سمّي بـ «الهوية الساميّة،» تبدأ من الأصول السحيقة، وتمرّ فوق الفترة الهلينستية من دون أن تتواصل معها، وتستمرّ حتى اليوم بدون أيّ انقطاع أو تحوير في تعبيرها عن نفسها! وللأسف، فإنّ هذا الرأي هو ما ردّدْته الأدبياتُ العربية الوحدوية، خاصةً البعثية، مستبدِلةً صفةَ «ساميّة» بصفة «عربية،» مع محافظتها على الإطار فوق - التاريخي نفسه وهذا الإطار يبدأ مع حضارات ما بين الرافديْن والآراميين والكنعانيين والفينيقيين، ثم يمرّ إلى الأنباط والتدمريين واللخميين والغساسنة والمناذرة، في سلسلة متّصلة تَنْبع من جزيرة العرب وتصبّ في الهلال الخصيب، مُسقِطًا المقدونيين والرومان

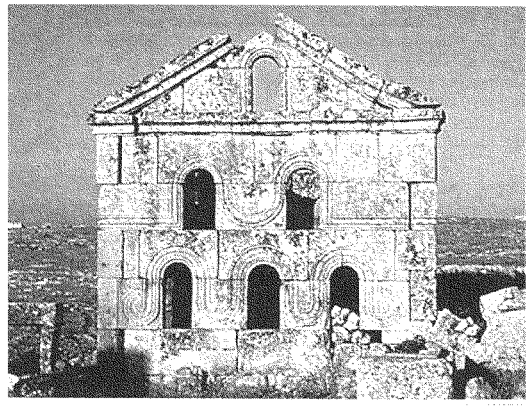

واجهة كنيسة في قرية الرويحة، وفيها تبدو علامات عمارة الحجر السورية المبرّدة. حاصة الإفريز الذي يدور حول المبنى بأكمله على طقتش

والبيزنطيين وغيرَهم مثلَ سكّان الجزر الغامضي الأصل (وعلى رأسهم الفلسطينيون) على أساس أنّهم مستعمرون خارجون عن المنطقة وعن بقائها العرقي، قبل الولوج إلى العصر الإسلامي الذي مَثَّلَ فيه العنصرُ العربي المكوِّنَ السكّاني الأصيلَ والوحيدَ فيه. وهكذا بقي النبطُ والرومُ والفرسُ والديلمُ والأتراكُ والأكراد وغيرُهم عناصرَ طارئةً أو دخيلةً بحسب هذا المنطق، بغضّ النظر عن أنّ بعضَها قد استوطن المنطقة لمئات السنين ولعب دورًا جديًا في توجيه تاريخها وتكوين شخصيتها المعاصرة. ومازالت بعضُ الأدبيات العربية المعاصرة تقدِّم التاريخَ ضمن هذا الإطار العنصري فوق - التاريخي وإنْ بحللٍ جديدةٍ ووفقًا لثوابت عقائدية جديدة، إسلاميةٍ هذه المرة، ولكنْ بنَفَسٍ مُبالَغٍ فيه لتعويض الإحساس اليائس بالفشَلِ الذي تعاني منه فكرةُ العروبة عامةً اليوم بعد أن انطفأَ بريقُها الأصلي الذي استحوذتْ عليه عندما قدّمها أوائلُ المنظِّرين القوميين كفكرة تحرُّرية وكحتمية تاريخية تستمدّ شرعيتَها من النظرية القوْمية التي كانت النظريةَ الناظمةَ الأكثرَ رواجًا في الفكر السياسي والاجتماعي الأوروبي في القرنيْن التاسع عشر والعشرين.

● أما الفرضية الثانية فهي أنّ المنطقة قد فَقَدت ارتباطَها بالتراث الكلاسيكي بعد مجيء الإسلام واكتساحِه لكلّ ما قبلَه، وهذا ما حتّمتْه الضرورةُ العقائديةُ التي أرادت بناءَ الحضارة الإسلامية الجديدة على أرضية جديدة. والنسخة المخفَّفة من هذه الفرضية هي التي تقول بأنّ الإسلام لم يَكْتسح كلَّ ما كان قبله، وإنّما أتى لكي يصحِّحَ التراتبيةَ الحضاريةَ في المنطقة ويعيد إليها «وجهَها الأصيل» نافضًا عنها التأثيراتِ الغريبةَ والخارجيةَ عنها، حتى تلك التي استمرّت فيها بدون انقطاع لمدة ألف سنة كالحضارة الكلاسيكية بمختلف مراحلها! وهذا بطبيعة الحال مستحيل، والتاريخُ الإسلامي ذاتُه يكذِّب ذلك. بل إنّ التاريخ الفكري والفني والمعماري الإسلامي مليء بالشواهد على اقتباسات من التراث الكلاسيكي، بعضُها معترَفٌ به ومفتَخَرٌ به في الأدبيات الاستشراقية والإسلامية التاريخية والمعاصرة معًا، وبعضُها مجهول أو مهمَلٌ عمدًا أو عن قِصَرِ نظرٍ من قبل بعض الأطراف أو كلِّها. ومع أنّ الحضارة الإسلامية قد نَظَرَتْ شرقًا، إلى إيران وما وراءها، بعد الفترة الأموية لاستلهام تعبيراتها، فإنّها لم تهمِلْ أبدًا التواصلَ مع الغرب المتوسطي؛ والأهمُّ من ذلك أنّها لم تَطْمس أو تَسْتبعدْ أبدًا التراثَ الكلاسيكي في الأراضي التي أصبحتْ لبّ الحضارة الإسلامية وموئِلَ الثقافة العربية، أي الشام والعراق ومصر.

ويَظْهر ذلك أكثرَ ما يَظْهر في العمارة، كتابِ التعبير الأول والأزلي للحضارات قبل اختراع الطباعة على رأي فيكتور هوغو. فالعمارة الأناضولية والسورية والمصرية في العهود الإسلامية هي أسطعُ دليل على أنّ لغة الكلاسيكية المحلية الفنية والمعمارية قد تغلغلتْ في قلب المجتمع وأصبحتْ لغتَه المعماريةَ التي تميّزه عن غيره من المجتمعات التي شاركتْه منهلَه الحضاري. وقد بقيتْ هذه اللغة المعمارية «المكلسَكَة» - إنْ صحَّ التعبير - فاعلةً ومؤثِّرةً حتى بعد مجيء الإسلام. وهذا ما يبدو جليًا لكلّ دارس للعمارة الأموية أولاً، ومن ثم للعمارة السلجوقية والزنكية والأيوبية بعد ثلاثة قرون خاصةً في سورية، وهي العمارة التي أُطلق عليها - خطأً في رأيي - «عمارةُ الإحياء الكلاسيكي» بسبب العناصر الكلاسيكية الواضحة في تفاصيلها. فالحقيقة هي أنّ هذه العمارة هي عمارةُ « **الاستمرار الكلاسيكي**» الذي لم يَنْقطع وجودُه في المنطقة أبدًا، وإنْ خَفَتَ صوتُه بفعل التدهور الاقتصادي والسياسي والأمني بعد سقوط الأمويين وخلال الفترتيْن العباسية والفاطمية بكلّ تفرُّعاتهما المحلية واضطراباتهما المستمرة التي حَدّتْ من النشاط المعماري والعمراني في بلاد الشام.

هذه الطُّرز المعمارية الإسلامية القروسطية التي تمتدّ على مساحة

. نـاصـــــــر الـربـاط .

ما زالت بعضُ الأدبيات العربية تقدِّم التاريخ ضمن إطار فوق ـ تاريخي لتعويض الإحساس بفشل فكرة «العروبة» عامةً اليوم

القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر تمتّ بصلاتٍ قرابةٍ حميمةٍ إلى عمارة الفترة الكلاسيكية في سورية والجزيرة. فهناك أولاً اعتمادُها على الحجر كمادة التعبير الأولى والرئيسة والنبيلة. وهناك أيضًا التعبيريةُ الخشنة والمحتشمة والمترفّعة في نحت الحجر بطريقةٍ فيها الكثيرُ من العزم والصلابة والتقشُّف التشكيلي. وهناك خاصةً العديدُ من التفصيلات المميّزة: كالأفاريز المنحوتة المستمرة التي تحيط بالنوافذ وتدور حول الزوايا، وكالنوافذ المقوّسة المزدوجة، وكالزخارف البارزة ذاتِ التأثيرات النباتية الهيلينستية المحوَّرة. هذه الصفات ميَّزتْ بشكل خاص العمارةَ السلجوقيةَ والزنكيةَ والأيوبيةَ في منطقة ومدينة حلب؛ كما يُمْكننا أن نلاحظ ـ إذا تمعّنّا في مئذنة الجامع الأموي أو قسطل الشعيبية أو المدرسة الظاهرية في حلب أو مئذنة الجامع الكبير في معرّة النعمان أو المئذنة الوحيدة القائمة في بالس وغيرها ـ الكثيرَ من الأمثلة الأقلّ شهرةً. بل واعتمادًا على الحيِّز الجغرافي الذي انتشرتْ فيه عمارةُ «الاستمرار الكلاسيكي،» أيْ شمال سورية والجزيرة، يمكننا أن نقرِّر بدرجة عالية من اليقين أنّ أبناء المنطقة هم مَنْ نَفّذوا هذه النهضةَ المعمارية ابتداءً من القرن الحادي عشر عندما توافر الاهتمامُ والتمويلُ والرعايةُ اللازمةُ للعمارة من قِبل الأسياد الجدد ويُمْكن أن يكونوا هم أيضًا مَنْ حَمَلَ مفرداتِ هذه النهضة لكي يُطَعِّموا بها عمارةَ جنوب سورية وفلسطين في الفترة الأيوبية التالية ومِنْ بعدِها العمارة المملوكية في سورية ومصر التي ظهرتْ فيها بعضُ الخصائص المميزة لعمارة الحجر الشمال ـ سورية. أيْ، بمعنى آخر، يمكن أن نقدِّم وجهةَ نظرٍ جديدةً لفهم العمارة الحجرية الرائعة في الشرق العربي الإسلامي القروسطي على أنّها امتدادٌ ثقافيٌ للعمارة الكلاسيكية/الهيلنستية المتأخِّرة والمحلية في سورية، وكذلك في جنوب الأناضول وشمال العراق، كما كانت العمارةُ الأوروبية القروسطية امتدادًا للعمارة الرومانية المتأخِّرة في إيطاليا وإسبانيا وجنوب فرنسا.

هذا طبعًا مثال واحد على الاستمرار الحضاري في الشرق العربي منذ الفترة الكلاسيكية وحتى اليوم. ولعلّه مثال سهل، إذ إنّ شواهده قائمة وواضحة وصريحة، على عكس أوجه النشاط الثقافي الأخرى الفنية والأدبية واللغوية والفكرية والقانونية التي تتطلّب سبرًا أعمقَ وبحثًا أدقَّ لتبيان جذورها الكلاسيكية وامتداداتها المحلية. ولكنّ الهدف من مثالي هو التأكيد على الامتداد الثقافي في إنتاج الحضارة العربية الإسلامية بدلاً من التركيز على الانفصال الحضاري والانكفاء على الذات. فلعلّنا كمؤرِّخين عرب حداثيِّين، في محاولاتنا كتابةَ التاريخ العربي الإسلامي كتابةً متحرِّرةً وواعيةً ومنفتحةً، نتمكّن من تجاوز البعديْن العرقي والجغرافي، وهما أكثر عناصر القومية فجاجةً، ونبدأ بإعطاء البعد الثقافي الحقّ ـ أي البعد المتعدّد الثقافات الذي خَبِرَه تاريخُنا ـ دورَه الرئيسي. فالتاريخ العربي الإسلامي في أغلبه وفي لحظاته المضيئة كلِّها كان تاريخًا منفتحًا، منفعلاً ومتفاعلاً مع الآخر. ولا أظنّ أنّ مقارعة الاستشراق الحديث بكافة ممثِّليه تكون باقتباس أدواته العنصرية أو بالدخول في صراع سجاليّ معه. بل الحقّ أنّ امتلاك ناصية كتابة التاريخ يجب أن تكون مقدِّمةً للعرب لكي ينفتحوا على حاضرهم، كما انفتح أجدادُهم على واقعهم وأَنتجوا من ذلك حضارةً مازلنا لا نَعْرف تمامًا كيف نتعامل مع تراثها.

بوسطن